وقف مركز مكة العالمي للهداية القرآنية
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

هداية الشكر وأثرها في ازدهار وانهيار الحضارات من خلال القصص القرآني

اسم الباحث/ـة

د/ أحمد كوري بن يابة السالكي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه مباركاً عليه كما يحب ربنا ويرضى.
اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم، في العالمين، إنك حميد مجيد. أما بعد:

فموضوع هذا البحث هو "هداية الشكر وأثرها في ازدهار وانهيار الحضارات من خلال القصص القرآني"، وهو موضوع ذو أهمية عظمى، لخطر أثر الشكر والكفر، وما يرتبط بهما من السنن الإلهية في ازدهار وانهيار الحضارات، التي قص الله تعالى علينا أخبارها في كتابه الكريم؛ لنأخذ منها الدروس والعبر.

وقد أخذ البحث بالمنهج التكاملي؛ فاستخدم ما يفيده في بلوغ هدفه من المناهج العلمية، مثل المنهج التاريخي، والوصفي، والاستقرائي، والتحليلي. ومراعاة للحجم المحدد، وضع البحث حدوداً لمجاله؛

فاقتصر على دراسة نماذج من الحضارات ورد النص الصريح في القرآن الكريم على أن ازدهارها أو انهيارها كان بسبب شكر أنعم الله أو كفرها.
مع استحضار أن تلك سنة إلهية عامة، لا تختص بحضارة دون حضارة، من الحضارات التي ورد ذكرها في القصص القرآني.

وقد اتبع البحث الخطة الآتية:

المبحث الأول: الشكر والكفر.

المطلب الأول: تعريف الشكر والكفر.

المطلب الثاني: عواقب الشكر والكفر

المبحث الثاني: الحضارات الشاكرة.

المطلب الأول: مظاهر الشكر.

المطلب الثاني: عواقب الشكر.

المبحث الثالث: الحضارات الكافرة.

المطلب الأول: مظاهر الكفر.

المطلب الثاني: عواقب الكفر.

والله الموفق والمستعان.

المبحث الأول: الشكر والكفر

المطلب الأول: تعريف الشكر والكفر:

الفرع الأول: تعريف الشكر: الشُّكْر والشُّكور والشُّكْران لغة: عرفان الإحسان ونشره، وقيل: لا يكون الشكر إلا عن يد، والحمد يكون عن يد وعن غير يد، وهذا الفرق بينهما. يقال: شكره وشكر له، وهي أفصح، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لُقمَان : ١٤]، وقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي﴾ [البَقَرَة : ١٥٢].

والشكر من الله: المجازاة والثناء الجميل. والشكور في أسمائه تعالى: معطي الثواب الجزيل، بالعمل القليل(١).

ولما كان الشكر من أوصاف المدح، وكان نقيضه – وهو الكفر – من أوصاف الذم، كان الله تعالى متصفاً بالشكر، ومنزهاً عن نقيضه وهو الكفر،

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسَان : ٢٢].

وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأَنبِيَاء : ٩٤](٢).

أركان الشكر: للشكر خمسة أركان، هي: "خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، والثناء عليه بها، وأن لا يستعملها في ما يكره"(٣).

شروط الشكر: لما كان الشكر يقوم على استعمال النعم في طاعة الله، كان شرطه الأساس هو معرفة أحكام الله تعالى، مع استعمال العقل في التدبر والاعتبار(٤).

---

(١) ينظر: القاموس المحيط، للفيروزابادي: ١٢/ ٢٢٤ – ٢٣٤ (مادة: ش ك ر)، وتاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي: ١٢/ ٢٢٤ – ٢٣٥ (مادة: ش ك ر)، وتفسير القرطبي: ١/ ٣٩٧ – ٣٩٨.

(٢) ينظر: تفسير الطبري: ١٨/ ٥٢٤.

(٣) بصائر ذوي التمييز، للفيروزابادي: ٣/ ٣٣٧.

(٤) ينظر: إحياء علوم الدين، للغزالي: ٤/ ٩٠.

أنواع الشكر: للشكر ثلاثة أنواع، هي: "شكر القلب، وهو تصور النعمة. وشكر اللسان، وهو الثناء على المنعم. وشكر سائر الجوارح، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه"(١).

تعريفات الشكر: وُضعت للشكر عدة تعريفات، لا تختلف في الجوهر،

"فقيل حده: أنه الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع. وقيل: الثناء على المحسن بذكر إحسانه. وقيل: هو عكوف القلب على محبة المنعم، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره، والثناء عليه. وقيل: هو مشاهدة المنة، وحفظ الحرمة"(٢).

الفرع الثاني: تعريف الكفر:الكُفْر والكُفور والكُفْران لغة: ضد الإيمان. وأصله الستر، ثم شاع في ستر النعمة خاصة، وفي مقابلة الإيمان. وكفر النعمة: جحدها وسترها(٣).

واستعمال "الكُفران" في جحود النعمة أكثر، واستعمال "الكُفر" في التكذيب أكثر،و"الكُفور" يستعمل فيهما. ويقال منهما: "كَفَرَ فهو كافر". و"الكَفور": صيغة مبالغة، تستعمل في المعنيين أيضاً، وكذلك "الكَفَّار"، وهي أبلغ من "الكَفور". واستعمال "الكُفار" في جمع "الكافر" بمعنى المكذب أكثر، كما أن استعمال "الكَفَرة"، في جمع "الكافر" بمعنى جاحد النعمة أكثر(٤).

قال ابن فارس: "الكاف والفاء والراء:أصل صحيح يدل على

---

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الإصفهاني: ٤٦١. وينظر: بصائر ذوي التمييز، للفيروزاباذي: ٣/ ٣٣٤، والشكر في القرآن، لحجاب: ٢٧٥ – ٢٨٦.

(٢) بصائر ذوي التمييز، للفيروزاباذي: ٣/ ٣٣٨. وينظر: إحياء علوم الدين، للغزالي: ٤/٨٤ – ٨٥، وتفسير القرطبي: ١/ ٣٩٧ – ٣٩٨، والشكر في القرآن، لحجاب: ١٠ – ١٧.

(٣) ينظر: القاموس المحيط، للفيروزاباذي: ١٤/ ٥٠ – ٦٢ (مادة: ك ف ر)، وتاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي: ١٤/ ٥٠ – ٦٥ (مادة: ك ف ر).

(٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الإصفهاني: ٧١٤، وبصائر ذوي التمييز، للفيروزاباذي: ٤/ ٣٦١ – ٣٦٢.

معنى واحد، وهو الستر والتغطية (..). والكفر: ضد الإيمان؛ سمي لأنه تغطية الحق. وكذلك كفران النعمة: جحودها وسترها"[١].

والكفر الذي يقابل الإيمان يدخل فيه جحود الوحدانية، وجحود النبوة، وجحود الشريعة[٢].

فللكفر استعمالان أساسان، هما: الكفر الذي يقابل الإيمان، والكفر الذي يقابل الشكر. وهذا الأخير هو موضوع البحث، ولما كان نقيضاً للشكر، كانت العناصر الأسس لتعريفه مفهومة من تعريف الشكر.

وقد ربط الله تعالى كلاًّ من الشكر والكفر بعواقب ملازمة له ومترتبة عنه، كما سيظهر من المطلب الآتي.

المطلب الثاني: عواقب الشكر والكفر:

الفرع الأول: عاقبة الشكر:لقد تضمنت هدايات القرآن الكريم إرشاد الإنسان إلى ما فيه صلاحه الدنيوي والأخروي[٣]، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسْرَاء : ٩]. كما تضمن القرآن الكريم بياناً وافياً للسنن الإلهية التي تحكم سير التاريخ[٤]، وهي السنن الإلهية التي لا تتبدل ولا تتحول: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فَاطِر : ٤٣]، وأقصى ما يمكن أن يصل إليه الفكر البشري الموفق أن يتوصل إلى مثلها، بعد قرون من البحث والتفكير والتنقيب. ونضرب مثالاً لذلك بإشكالية العلاقة بين الحضارة والأجناس، فقد توصل الفكر البشري في عصرنا، بعد مخاض طويل، إلى أن الناس سواسية في هذا المجال، وأنه لا يوجد جنس بشري مؤهل أكثر من غيره

(١) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس: ٥/ ١٩١ (مادة: ك ف ر).

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الإصفهاني: ٧١٤.

(٣) ينظر: القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، لعرجون: ١٧ – ١٨٩، والهداية في القرآن الكريم ومضامينها التربوية، للحازمي: ٥٥ فما بعدها.

(٤) ينظر: التفسير الإسلامي للتاريخ، لخليل: ٥ – ١٧.

لإنشاء الحضارات. هذا مع أن هذه السنة الإلهية منصوص عليها في القرآن الكريم. يقول د. حسين مؤنس: "ولقد خرج المؤرخون الغربيون بهذه النتيجة بعد جهد وعناء، في حين أننا معشر المسلمين والمتكلمين بالعربية نفتح القرآن الكريم فنجد أنه أجملَ ذلك كله في آية واحدة من آياته، وهي الآية الثالثة عشرة من سورة الحجرات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجرَات : ١٣]"(١).

ومن الهدايات التي تضمنها القرآن الكريم: الحض على شكر أنعم الله، والتحذير من كفرها، بحيث إن هذه الهداية كانت هي الموضوع الذي تدور عليه سورة كاملة من القرآن الكريم، هي سورة النحل(٢). وقد كانت هذه الهداية بارزة في القصص القرآني(٣)، وهو الذي يمثل التحقق الواقعي للسنن الإلهية(٤).

وقد أرشد الله تعالى عباده إلى الشكر، في آيات كثيرة من كتابه الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البَقَرَة : ١٧٢]،

وقوله: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البَقَرَة : ١٥٢]،

وقوله: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان : ١٤٤]،

وقوله: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النَّحل : ١١٤] ،

وقوله: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العَنكَبُوت : ١٧].

وقال مخاطباً لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم:

---

(١) الحضارة، لمؤنس: ٥٠. وينظر: التفسير الإسلامي للتاريخ، لخليل: ١٠٩.

(٢) ينظر: التوحيد والشكر في سورة النحل، لطهماز: ٧ فما بعدها.

(٣)ينظر: أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن الكريم، لسيلا: ٣٦٣ – ٣٩٤.

(٤) ينظر: الإسلام والوعي الحضاري، للعمري: ٩٩ — ١٢٨، والتفسير الإسلامي للتاريخ، لخليل: ٩٧ – ١١٧.

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزُّمَر : ٦٦] ، وقال مخاطباً لنبيه موسى عليه السلام: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأَعۡرَاف : ١٤٤].

وأخبرنا الله سبحانه وتعالى بأنه يرضى لعباده الشكر، ولا يرضى لهم الكفر، قال تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزُّمَر : ٧].وذلك لما للشكر من عواقب نافعة محمودة في الدنيا والآخرة(١).

ولذلك كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحون يدعون الله تعالى أن يوفقهم للشكر، قال تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النَّمل : ١٩] .

وقال تعالى حكاية عن عباده الصالحين(٢): ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأَحۡقَاف : ١٥].

وقد دعا إبراهيم عليه السلام لبنيه؛ ليشكروا نعم الله، فقال: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إِبۡرَاهِيم : ٣٧].ونِعمُ الله تعالى على الإنسان، لا يمكن للإنسان إحصاؤها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إِبۡرَاهِيم : ٣٤ والنحل: ١٨](٣) ، لذلك كان الشكر عليها صعباً، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وفي قول الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإِنسَان : ٣] ، أتى في الشكر بصيغة لا تقتضي المبالغة، وهي "شاكر"، وأتى في الكفر بصيغة

(١) ينظر: الشكر في القرآن، لحجاب: ٣٤٩ – ٣٦١.

(٢) قيل: إن الآية نزلت في أبي بكر، رضي الله عنه. وقيل: نزلت في سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه. وقيل: إنها عامة. ينظر: تفسير القرطبي: ١٦/ ١٩٤ – ١٩٥.

(٣) ينظر: مدخل إلى فقه النعمة، لميقاتي: ٢٩ فما بعدها.

المبالغة، وهي "كفور"، "وجمع بين الشاكر والكفور، ولم يجمع بين الشكور والكفور مع اجتماعهما في معنى المبالغة، نفياً للمبالغة في الشكر، وإثباتاً لها في الكفر؛ لأن شكر الله تعالى لا يؤدى، فانتفت عنه المبالغة. ولم تنتف عن الكفر المبالغة. فقل شكره، لكثرة النعم عليه، وكثر كفره – وإن قل – مع الإحسان إليه"(١).

وقد أنعم الله تعالى على عباده بهذه النعم التي لا يمكن أن يحصوها، ليشكروه عليها: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النَّحل : ٧٨]. وقد أثنى الله تعالى على اثنين من أنبيائه بشكرهما لأنعمه،

فقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ﴾ [النَّحل : ١٢١].

وقال في نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسْرَاء : ٣](٢).

قال البخاري في تفسير هذه الآية: "شكوراً: كثير الشكر. أي: فاقتدوا به، وكونوا شاكرين مثله، بالتزام أمر الله تعالى وطاعته، واجتناب نهيه سبحانه ومعصيته"(٣).وفي الحديث أن الناس يوم القيامة يقولون لنوح عليه السلام: "يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً"(٤).

الفرع الثاني: عاقبة الكفر:

سن الله تعالى سنة من سننه الإلهية التي لا تتبدل ولا تتحول: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فَاطِر : ٤٣]، وهي أن الشكر قيد النعم

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩/ ١٢٢.

(٢)ينظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الإصفهاني: ٤٦٢، وبصائر ذوي التمييز، للفيروزاباذي: ٣/ ٣٣٥.

(٣) صحيح البخاري: ٤/ ١٧٤٥.

(٤)متفق عليه: رواه البخاري: ٣/ ١٢١٥،كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نُوح : ١]، برقم: ٣١٦٢، ومسلم: ١/ ١٨٤، كتاب: الإيمان، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها، برقم: ١٩٤.

وحارسها، وسبب لزيادتها، كما أن الكفر سبب لزوالها. فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبْرَاهِيم : ٧]. وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفَال : ٥٣]. وقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النِّسَاء : ١٤٧].

وفي قصة آل لوط، أورد الله تعالى هذه السنة الإلهية، ونبه إلى أنها لا تختص بقوم دون قوم، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القَمَر : ٣٥].

وقد أنكر الله تعالى على الكفار كفرهم بنعمته؛ فقال تعالى: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النَّحْل : ٧٢]، وقال: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عَبَس : ١٧] ، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبْرَاهِيم : ٣٤] ، وقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النَّحْل : ٨٣]. والشيطان يبذل دائماً كل جهده لصرف العباد إلى الكفر بأنعم الله، كما قال الله تعالى حكاية عنه: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعْرَاف : ١٧].

ونبه الله تعالى عباده على تلك السنة الإلهية التي تحكم بأن كفر النعمة هو سبب انهيار الحضارات، كما قال في قصة أهل سبأ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ : ١٧]. وقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القَصَص : ٥٨].

فبذلك كان الشكر سبب ازدهار الحضارات، كما كان الكفر سبب انهيارها. كما سيظهر من تفاصيل القصص القرآني، في المبحثين الآتيين.

المبحث الثاني: الحضارات الشاكرة:

المطلب الأول: مظاهر الشكر:

الفرع الأول: حضارة نوح عليه السلام:

إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم المؤسسون الحقيقيون للحضارات، والحضارات الشاكرة هي حضارات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والصالحين من أتباعهم، فقد أنعم الله تعالى عليهم نعماً عظيمة، فشكروها، فجازاهم الله على ذلك بالتمكين لحضارتهم وازدهارها؛ فصارت حضاراتهم هي المثل الحضاري الأعلى(١).

وقد أنعم الله تعالى على نوح عليه السلام بنعم عظيمة، فاصطفاه على العالمين وجعله نبيّاً من أولي العزم من الرسل. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عِمْرَان : ٣٣]. وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحَدِيد : ٢٦]

وقد وصف الله تعالى نوحاً عليه السلام بأنه كان من الشاكرين، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسْرَاء : ٣].

ومن مظاهر شكره ثباته في وجه الكفار، وجهاده لهم على طول ألف سنة إلا خمسين عاماً، وتحمله لكل ما آذوه به في سبيل الله.

الفرع الثاني: حضارة إبراهيم ولوط عليهما السلام:

كانت حضارة إبراهيم وحضارة لوط عليهما السلام مرتبطتين، إذ كانت حضارة لوط امتداداً لحضارة إبراهيم، عليهما السلام؛ فقد آمن لوط بإبراهيم وهاجر معه، قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العَنكَبُوت : ٢٦].

---

(١) ينظر: سنن التداول ومآلات الحضارة، لهيشور: ٢٧٥ – ٢٩٥، وسنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، لهيشور: ١٦٩ – ١٧٠.

ويقال: إنه كان ابن أخيه[١].وكانت رسالتهما متكاملة،

قال أبو حيان: "ولم يأت في قصة لوط أنه دعا قومه إلى عبادة الله، كما جاء في قصة إبراهيم وقصة شعيب؛ لأن لوطاً كان من قوم إبراهيم، وفي زمانه، وسبقه إبراهيم إلى الدعاء لعبادة الله وتوحيده، واشتهر أمره بذلك عند الخلق؛ فذكر عن لوط ما اختص به من المنع من الفحشاء وغيرها"[٢].

وقال الخازن: "قيل: كان لوط مرسلاً إلى طائفة من قوم إبراهيم. ولذلك قال: ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ [ق : ١٣]"[٣].

وقد أنعم الله تعالى على إبراهيم عليه السلام بنعم عظيمة كذلك، فاصطفاه على العالمين وجعله نبيّاً من أولي العزم من الرسل، كما في الآيتين المتقدمتين في الفرع السابق. وأنزل عليه الصحف، وأعطاه مقام الخلة، وأنعم عليه بالأولاد بعد الكبر. وهو وموسى عليهما السلام أكثر الأنبياء وروداً في القصص القرآني[٤].

وقد وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بأنه كان من الشاكرين، فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةًۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النَّحل : ١٢٠ - ١٢٢].والأمة:الرجل الجامع للخير، والذي يُعَلم الناس الخير فيأتمون به. والقانت: المطيع لله[٥].وفي هذه الآيات المتقدمة من سورة النحل، وهي سورة الشكر،

---

(١)ينظر: تفسير القرطبي: ١٣/ ٣٣٩، وتفسير ابن كثير: ٦/ ٢٧٢.

(٢) تفسير أبي حيان: ٨/ ٣٥٣. وينظر: تفسير الرازي: ٢٥/ ٤٩، و ٢٨/ ١٣٢، و ٢٥/ ٥٤، وتفسير الألوسي: ١٠/ ٣٥٨.

(٣) تفسير الخازن: ٤/ ١٨٧.

(٤)ينظر: التفسير الإسلامي للتاريخ، لخليل: ١٠٢.

(٥)ينظر: تفسير الطبري: ١٧/ ٣١٦ - ٣١٩، وتفسير القرطبي: ١٠/ ١٩٧ - ١٩٨، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٦١٠ — ٦١١، ورسالة في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النَّحل : ١٢٠]، لابن طولون الصالحي: ١٣ فما بعدها.

كما تقدم، نجد القرآن الكريم يقدم لنا حضارة إبراهيم نموذجاً للحضارات الشاكرة، كما كانت حضارة كفار أهل مكة نموذجاً للحضارات الكافرة؛ فقبل هذه الآيات جاء في الآيتين:(١١٢ ، ١١٣) الحديث عن انهيار حضارة أهل مكة بسبب كفرهم بأنعم الله، وعَرضت لنا السورة صورتين مقارنتين، لعاقبة هاتين الحضارتين المتضادتين. كما سيأتي.

وقد أثنى الله تعالى على إبراهيم في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِىۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البَقَرَة : ١٢٤]. قال ابن عباس: "لم يُبتلَ أحد بهذا الدين فأقامه إلا إبراهيم، ابتلاه الله بكلمات، فأتمهن. قال: فكتب الله له البراءة فقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النَّجْم : ٣٧]"(١).

وقال الله تعالى في إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التَّوْبَة : ١١٤]، وقال فيه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هُود : ٧٥] . ومن تفسيرات الأواه أنه: كثير الدعاء، والرحيم بعباد الله، والموقن، والمؤمن، والفقيه، والتواب، والمسبح، والمتضرع الخاشع(٢). قال القرطبي: "والحليم: الكثير الحلم وهو الذي يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى. وقيل: الذي لم يعاقب أحداً قط إلا في الله، ولم ينتصر لأحد إلا لله"(٣).

والمنيب: الذي يرجع إلى الطاعة، ويرجع إلى الله في أموره كلها(٤).

وقال الله تعالى في إبراهيم عليه السلام أيضاً: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مَرْيَم : ٤١]. قال الزمخشري: "الصديق: من أبنية المبالغة. ونظيره الضِّحِّيك والنِّطِّيق. والمراد فرط صدقه، وكثرة ما صدق به

(١)ينظر: تفسير الطبري: ٢/٧، وتفسير القرطبي: ٢/ ٩٦ – ٩٧، وتفسير ابن كثير: ٢/ ٤٢٢.

(٢)ينظر: تفسير الطبري: ١٤/ ٥٢٣ – ٥٣٦وتفسير ابن كثير: ٤/ ٢٢٥ – ٢٢٧.

(٣)تفسير القرطبي: ٨/ ٢٧٦.

(٤)ينظر: تفسير الطبري: ١٥/ ٤٠٦، وتفسير القرطبي: ٩/ ٧٣.

من غيوب الله وآياته وكتبه ورسله"[1].

ومن مظاهر شكر إبراهيم لأنعم الله: ثباته على الحق في وجه الكفار مع انفراده وكثرتهم وقوتهم، وجهاده لهم، وصبره على أذاهم، وتحطيمه للأصنام، وصبره على الرمي في النار، وعلى اعتزال قومه، وعلى الهجرة عن وطنه، وعلى ذبح ولده.

وقد أنعم الله تعالى على لوط عليه السلام بنعم عظيمة كذلك، فاصطفاه على العالمين وجعله نبيّاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام : ٨٦]، وآتاه الحكم والعلم، وأنجاه من كيد الكفار، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء : ٧٤].

وقد وصف الله تعالى لوطاً وآله بأنهم كانوا من الشاكرين؛ فقال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر : ٣٤ - ٣٥]. وقد واجه لوط كذلك قومه، رغم ضعفه وقلة أنصاره، حتى نصره الله عليهم، قال تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود : ٨٠] . ولم يعبأ بتهديدهم ووعيدهم. قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل : ٥٦]. بل تحداهم وأعلن كلمة الحق أمامهم: ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء : ١٦٨ - ١٦٩].

الفرع الثالث: حضارة داود وسليمان عليهما السلام:

كانت حضارة داود وحضارة سليمان عليهما السلام مرتبطتين، إذ كانت حضارة سليمان امتداداً لحضارة داود، عليهما السلام؛ فقد كان ابنه ووارثه، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ﴾ [النمل : ١٦].وقد كان عدد ذكرهما في القرآن الكريم متقارباً؛ فقد ذُكر كل واحد منهما في ست عشرة آية،

(١)تفسير الزمخشري (الكشاف): ٣/ ١٨.

ولكن سليمان تكرر ذكره في إحداها؛ فصارت مرات ذكره سبع عشرة[1].

وقد أنعم الله تعالى على داود وسليمان عليهما السلام بنعم كثيرة، اشتركا في بعضها، وانفرد كل واحد منهما ببعضها.

فمما اشتركا فيه: النبوة، والتفضيل، وإيتاء الحكم والعلم، وإيتاء الملك، وتسخير الطير وتعليم منطقها.

ومما انفرد به داود: إنزال الزبور عليه، وتسخير الجبال، وإلانة الحديد له، وتعليمه صناعة الدروع، ونصره على جالوت، والإنعام عليه بسليمان، والإنعام عليه بحسن الصوت.

أما سليمان فقد دعا الله تعالى بقوله: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص : ٣٥] ، فاستجاب الله تعالى دعاءه وقال له: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص : ٣٩] ،

فمما انفرد به: تسخير الإنس والجن، وتسخير الريح، والإنعام عليه بفهم قصة غنم القوم، وتعليمه منطق النمل، وإسالة القِطر له، وهو النحاس المذاب، وإحضار عرش ملكة سبأ له من اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين.

وقد أرشد الله تعالى داود وسليمان عليهما السلام، إلى شكر النعم الجليلة التي أنعم الله عليهما بها. قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ : ١٣]، وقال في سياق تعديد النعم عليهما: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ : ١١]. أي: اعملوا صالحاً "في الذي أعطاكم الله من النعم"[2].فعملا عليهما السلام بهذا التوجيه الرباني فكانا من الشاكرين.

فسليمان عليه السلام، سأل الله تعالى أن يوفقه إلى شكر نعمه؛ فقال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ [النَّمل : ١٩].

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، لعبد الباقي: ٢٦٤، و ٣٥٧.

(٢) تفسير ابن كثير: ٦/ ٤٩٨.

وكان كلما أنعم الله عليه بنعمة يستحضر أن النعم ابتلاء واختبار من الله للناس: أيشكرون أم لا؟ فلما أنعم الله عليه بخارق إحضار عرش ملكة سبأ: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النَّمل : ٤٠].

وقد أثنى الله تعالى على داود عليه السلام بقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص : ١٧]. قال الطبري: "ويعني بقوله: ذا الأيد: ذا القوة والبطش الشديد في ذات الله والصبر على طاعته"(١).

وقد وصف الله تعالى داود في هذه الآية بأنه أواب. ووصف بذلك سليمان أيضاً في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص : ٣٠]. أي أنه "رجاع إلى طاعة الله، تواب إليه مما يكرهه منه. وقيل: إنه عني به أنه كثير الذكر لله والطاعة"(٢).

وقال الله تعالى في كل واحد منهما: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص : ٢٥ و ٤٠]. وقد جاهد داوود وسليمان في سبيل الله؛ فجاهد داود حتى قتل جالوت، ودعا سليمان أهل سبأ، حتى آمنوا.

المطلب الثاني: عواقب الشكر:

الفرع الأول: حضارة نوح عليه السلام:

كما قضت السنة الإلهية التي لا تتبدل ولا تتحول، كانت عواقب شكر نوح عليه السلام، أن الله أتم عليه نعمته، وزاده من فضله.

فقد أنجاه الله تعالى هو ومن آمن معه، وأعطاهم خلافة الأرض بعد أن أهلك الكافرين بالطوفان، كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يُونُس : ٧٣]. ونصره على الكفار،

(١)تفسير الطبري: ٢١/ ١٦٦.

(٢)تفسير الطبري: ٢١/ ١٩١.

كما قال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء : ٧٧]. ونجاه من وعيدهم إياه بالرجم، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشُّعَرَاء : ١١٦].

وجعل الله نوحاً سبباً لبقاء ما شاء بقاءه من الكائنات الحية، فقد حمل في السفينة زوجين من جميع الكائنات الحية، كما قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هُود : ٤٠].

قال ابن عباس: "نوح آدم الأصغر؛ فجميع الخلائق الآن من نسله"(١)، فقد جعل الله تعالى ذرية نوح هم الباقين، كما قال: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصَّافَّات : ٧٥ - ٧٩]. قال القرطبي: "أي: تركنا عليه ثناء حسناً في كل أمة؛ فإنه محبب إلى الجميع، حتى إن في المجوس من يقول: إنه أفريدون"(٢).

فكانت حضارته بذلك متصلة إلى يوم القيامة، وكانت أصل كل الحضارات التي تلتها؛ لأن البشر كلهم من ذريته. قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [هُود : ٤٨]. قال محمد بن كعب القرظي: "دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في ذلك العذاب والمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة"(٣). وفي ختام قصة نوح من سورة هود، نبه الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، إلى أن هذه سنة إلهية عامة لا تختص بنوح، فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هُود : ٤٩].

---

(١)ينظر: تفسير القرطبي: ٩/ ٤٨.

(٢)تفسير القرطبي: ١٥/ ٩٠.

(٣)ينظر: تفسير الطبري: ١٥/ ٣٥٤، وتفسير القرطبي: ٩/ ٤٨، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٣٢٧.

وفي ختام قصة نوح كذلك من سورة الصافات، نبهنا الله تعالى أيضاً إلى عموم هذه السنة الإلهية؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصَّافَّات : ٨٠](١).

الفرع الثاني: حضارة إبراهيم ولوط عليهما السلام:

نجد السنة الإلهية نفسها التي تحققت مع نوح عليه السلام، تتحقق مع إبراهيم عليه السلام، فكلاهما أوعده قومه بالرجم؛ فنجاه الله منهم. قال تعالى في إبراهيم: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مَرۡيَم : ٤٦]. وكما أن الله تعالى جعل ذرية نوح هم الباقين وجعل النبوة في ذريته، كذلك جعل النبوة في ذرية إبراهيم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ [الحَدِيد : ٢٦].

وكلا الرسولين قال الله فيه: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الصَّافَّات : ٧٨ و ١٠٨].

فكان كل منهما تتولاه جميع الأمم، وقد دعا إبراهيم ربه بقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الشُّعَرَاء : ٨٤]، فأجاب الله دعاءه. وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [العَنكَبُوت : ٢٧]، قال عكرمة: "يعني اجتماع أهل الملل عليه"(٢).

فكانت حضارته بذلك متصلة إلى يوم القيامة؛ لأن الأديان كلها تعظمه، "وكان إبراهيم عليه السلام رئيس الموحدين، وقدوة الأصوليين، وهو الذي دعا الناس إلى التوحيد وإبطال الشرك وإلى الشرائع"(٣).

ويكفيه شرفاً أن الله تعالى أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم باتباعه، فقال: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النَّحل : ١٢٣].

وكلا الرسولين نوح وإبراهيم قال الله تعالى في آخر قصته: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصَّافَّات : ٨٠ و ١١٠]، تنبيهاً على عموم واطراد تلك السنة الإلهية.

وقد أنجى الله تعالى إبراهيم من النار بمعجزة خارقة للعادة،

---

(١)ينظر: تفسير الطبري: ٢١/ ٦٠.

(٢)ينظر: تفسير القرطبي: ١٣/ ٣٤٠.

(٣)تفسير الرازي: ٢٠/ ٢٨٣.

قال تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء : ٦٨ - ٦٩].

وأنجاه الله من كيد قومه، قال تعالى: ﴿وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ﴾ [الأنبياء : ٧٠]. وقال: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ [الصافات : ٩٨].

وقد جعل الله تعالى النبوة في ذريته إلى يوم القيامة، كما قال: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت : ٢٧].

ولما اعتزل أسرته وقومه وهاجر عن وطنه، عوضه الأرض المباركة والبنين الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء : ٧١ - ٧٢].

وقال: ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم : ٤٩ - ٥٠].

وكذلك أنجى الله تعالى لوطاً وآله من العذاب العظيم الذي حاق بالكفار من قومه، وقد نبهنا الله تعالى بأن إنجاءه إياهم كان عاقبة لشكرهم،

كما قال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ [القمر : ٣٤ - ٣٥].

وقد هاجر لوط مع إبراهيم عليه السلام، وترك أسرته وقومه ووطنه لوجه الله، فعوضه الله الأرض المباركة،

قال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء : ٧١]. وقال: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [العنكبوت : ٢٦].

وأنجاه الله من كيد قومه بعد أن هددوه بالطرد، ونصره عليهم، قال تعالى في شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [العنكبوت : ٣٠] ، وقال حكاية عن قومه: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ﴾ [النمل : ٥٦] ،

وقال: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء : ٧٤].

الفرع الثالث: حضارة داود وسليمان عليهما السلام:

تكررت السنة الإلهية مع حضارة داود وسليمان أيضاً.

فكما أن عاقبة شكر نوح عليه السلام، أن الله تعالى جعله هو والمؤمنين معه خلائف في الأرض، جعل الله أيضاً داود خليفة في الأرض، قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص : ٢٦].

وقال: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾ [البَقَرَة : ٢٥١]. فيروى أنه أول ملك اجتمعت عليه بنو إسرائيل، وجمع الله له بين ملك طالوت ونبوة أشمويل(١).

وكان من عواقب شكر داود وسليمان عليهما السلام، أن حضارتهما بقيت مزدهرة، طيلة عهد داود، ثم طيلة عهد سليمان.

وفي سورة سبأ، نجد حضارة داود وسليمان نموذجاً للحضارات الشاكرة، كما كانت حضارة أهل سبأ نموذجاً للحضارات الكافرة؛

فقد جاءت قصة سبأ، بعد قصة داود وسليمان عليهما السلام مباشرة، وعَرضت لنا السورة صورتين مقارنتين، لعاقبة هاتين الحضارتين المتضادتين.

يقول الطبري: "يقول تعالى ذكره: فهذا فِعلُنا بولينا ومن أطاعنا داود وسليمان الذي فعلنا بهما، من إنعامنا عليهما النعم التي لا كفاء لها؛ إذ شَكَرانا، وذاك فِعلُنا بسبأ الذي فعلنا بهم؛ إذ بطروا نعمتنا وكذبوا رسلنا وكفروا أيادينا"(٢).

(١)ينظر: تفسير الطبري: ٥/ ٣٧٢، وتفسير القرطبي: ٣/ ٢٥٨.

(٢) تفسير الطبري: ٢٠/ ٣٩٤.

المبحث الثالث: الحضارات الكافرة:

المطلب الأول: مظاهر الكفر:

الفرع الأول: حضارة عاد:

أنعم الله على عاد بنعم عظيمة، بحيث أنهم كانوا متفوقين على معاصريهم ومن بعدهم، في قوة الأبدان وشدة البطش وكثرة الأموال وبسط الرزق والمهارة في تشييد القصور والأبنية الفخمة(١)،

قال تعالى مخاطباً لكفار أهل مكة: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأَحْقَاف : ٢٦].

وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفَجْر : ٦ – ٨].

وإرم: قيل: إنها بلدة، وقيل: إنها قبيلة من عاد، وهو الراجح(٢). وذات العماد: ذات الطول، لطول أجسامهم، أو لشدة أجسامهم وقوتهم، أو أنهم كانوا أهل عمود لا يقيمون(٣).

وقد أرسل الله إلى عاد نبيه هوداً عليه السلام، فكذبه الذين استكبروا منهم، وهم أكثرهم، وأصروا على الكفر بأنعم الله. كما قال تعالى:

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هُود : ٥٣]. وقال: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هُود : ٥٩].

وقال: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشُّعَرَاء : ١٣٦ – ١٣٨].

---

(١)ينظر: تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ١/٢١٦ – ٢١٦، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١/ ٢٨٢ – ٣٠٣، وعاد في التاريخ، للعطاس: ١٥ فما بعدها.

(٢)ينظر: تفسير الطبري: ٢٤/ ٤٠٣ – ٤٠٥.

(٣)ينظر: تفسير الطبري: ٢٤/ – ٤٠٥ – ٤٠٧.

ومن مظاهر كفرهم بأنعم الله:

١-**كفرهم وتكذيبهم لنبي الله هود**، عليه السلام، كما في الآيات السابقة.

٢-الاستكبار والاستعلاء، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت : ١٥][(١)].

٣-**طاعة رؤسائهم الجبارين**، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هُود : ٥٩].

٤-**تبذير النعم وتبديدها في اللهو والعبث**، بتشييد ما لا يحتاجون إليه من الأبنية، كما قال تعالى حكاية عن نبيهم هود عليه السلام: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشُّعَرَاء : ١٢٨ - ١٢٩]. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشُّعَرَاء : ١٢٩] ، قيل: استفهام، وقيل: خبر، أي: كأنكم تخلدون، فتبقون في الأرض، أو لكي تخلدوا، أو ترجون الخلود في الدنيا، أو تشبه حالكم حال من يخلد[(٢)].

٥-**الطغيان والجور والظلم**، كما قال تعالى حكاية عن هود عليه السلام: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشُّعَرَاء : ١٣٠]. أي: "وإذا سطوتم سطوتم قتلاً بالسيوف، وضرباً بالسياط"[(٣)]. والجبار: الذي يقتل ويضرب على الغضب، أو القتّال في غير حق، أو المتسلط العاتي[(٤)].

الفرع الثاني: حضارة ثمود:

كانت حضارة ثمود من أعظم الحضارات[(٥)]، وقد دلت كشوف علماء الآثار المعاصرين على الشأو الذي وصلته هذه الحضارة في التقدم والعمران[(٦)].

---

(١)ينظر: تفسير ابن كثير: ٨/ ٣٩٤.

(٢)ينظر: تفسير الطبري: ١٩/ ٣٧٦، وتفسير الزمخشري (الكشاف): ٣/ ٣٢٦.

(٣)تفسير الطبري: ١٩/ ٣٧٧.

(٤)ينظر: تفسير الزمخشري (الكشاف): ٣/ ٣٢٦، وتفسير القرطبي: ١٣/ ١٢٤.

(٥)ينظر: تاريخ الرسل والملوك،للطبري:٢٢٦٢٣٢/١، والبداية والنهاية، لابن كثير: ١/ ٣٠٤/ ٣٢٣

(٦)ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، لعلي: ١/ ٣٢١ - ٣٣٤، و ١٥/ ٢٣٥ - ٢٣٦، والقبائل الثمودية والصفوية: دراسة مقارنة، للروسان: ٣ - ١٩٤.

وقد أنعم الله على ثمود بنعم عظيمة، منها: الأمن، والخصب، والبسط في الرزق، والمهارة في بناء القصور في السهول، ونحت البيوت في الجبال،

قال الله تعالى حكاية عن صالح عليه السلام:

﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ [الشُّعَرَاء : ١٤٦ - ١٤٩].

وقد أرسل الله إلى ثمود نبيه صالحاً عليه السلام، وأيده بمعجزة عظيمة هي الناقة؛ فكذبه الذين استكبروا منهم، وهم أكثرهم. فكانت ثمود أشد الأمم كفراً وعناداً، ولذلك كرر الله تعالى ذمهم. قال ابن عاشور في تفسير قول الله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هُود : ٩٥]:

"ويجوز أن يكون المقصود من التشبيه الاستطراد بذم ثمود؛ لأنهم كانوا أشد جرأة في مناوأة رسل الله. فلما تهيأ المقام لاختتام الكلام في قصص الأمم البائدة، ناسب أن يعاد ذكر أشدها كفراً وعناداً؛ فشبه هلك مدين بهلكهم"(١).

ومن مظاهر كفرهم بأنعم الله:

١. **كفرهم وتكذيبهم لنبي الله صالح، عليه السلام، واتهامه بأنه كذاب أشر مسحور.** قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأَعْرَاف : ٧٦ - ٧٧].

وقال: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هُود : ٦٢].

وقال: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشُّعَرَاء : ١٥٣]. والمسَحَّر: الذي سُحر كثيراً حتى غُلب على عقله(٢).

---

(١)التحرير والتنوير، لابن عاشور: ١٢/ ١٥٤.

(٢)ينظر: تفسير الزمخشري (الكشاف): ٣/ ٣٢٨.

وقال حكاية عنهم: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القَمَر : ٢٥]. والأشر: البطر المتكبر. أي: "حمله بطره وشطارته وطلبه التعظم علينا على ادعاء ذلك"(١).

٢. **عتوهم عن أمر الله**، وقد وصفهم الله تعالى بالعتو مرتين في القرآن. قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأَعْرَاف : ٧٧]. وقال: ﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الذَّارِيَات : ٤٤]. أي: "تكبروا وتجبروا عن اتباع الله، واستعلوا عن الحق"(٢).

٣. **عقرهم لناقة الله**، وهي آية عظيمة تدل على صدق صالح عليه السلام، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشَّمْس : ١٤] ، وقال: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القَمَر : ٢٩] ، وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإِسْرَاء : ٥٩].

٤. **تآمرهم لقتل صالح عليه السلام وأهله**، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النَّمْل : ٤٨ – ٥٠].

٥. **طغيانهم وظلمهم**، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشَّمْس : ١١] ، "أي بطغيانها، وهو خروجها عن الحد في العصيان"(٣). وقال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحَاقَّة : ٥] ، أي: بسبب طغيانهم، عند بعض المفسرين(٤).

٦. **فسادهم في الأرض**، قال تعالى حكاية عن صالح عليه السلام: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأَعْرَاف : ٧٤]. وقال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [النَّمْل : ٤٨.

---

(١)تفسير الزمخشري (الكشاف): ٤/ ٤٣٧.

(٢)تفسير الطبري: ١٢/ ٥٤٣.

(٣)تفسير القرطبي: ٢٠/ ٧٨.

(٤)ينظر: تفسير الطبري: ٢٣/ ٥٧١، وتفسير الزمخشري (الكشاف): ٤/ ٥٩٩، وتفسير ابن كثير: ٨/ ٢٠٨.

الفرع الثالث: حضارة أهل سبأ:

لأهل سبأتاريخ حضاري ثري موغل في القدم(١)، وقد أنعم الله على أهل سبأ بنعم عظيمة؛ فكانوا يعيشون في بلدة طيبة الهواء والماء، محفوفة بجنتين غنيتين بالثمار والفواكه. قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ : ١٥]

وقد أنعم عليهم أيضاً بالأمن في بلادهم وفي أسفارهم؛ فجعل طريقهم إلى الشام معموراً بالقرى المتصلة. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ : ١٨]. أي: "وجعلنا بين قراهم والقرى التي باركنا فيها، سيراً مقدراً، من منزل إلى منزل، وقرية إلى قرية؛ لا ينزلون إلا فى قرية، ولا يغدون إلا من قرية(٢). والقرى التي بارك الله فيها: هي بلاد الشام، والقرى الظاهرة: المتواصلة المعمورة(٣).

ولم ينص القرآن الكريم على اسم النبي المرسل إلى أهل سبأ. وقد ذكر بعض المفسرين أن الله أرسل إليهم ثلاثة عشر نبيّاً، وقال بعضهم: أرسل الله إليهم اثني عشر ألف نبي(٤).

وقد قابل أهل سبأ نعمة الله عليهم بالكفر والظلم والاستخفاف، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ [سبأ: ١٦] ، أي: كذبوا الأنبياء وأعرضوا عن طاعة الله. وأقبلوا على عبادة الشمس وغيرها من الأجرام والأصنام(٥)، كما قال تعالى حكاية

---

(١)ينظر: تاريخ الرسل والملوك، للطبري: ١/ ٥٦٦ – ٥٦٧، و ٢/ ١٠٥ – ١٢٣، والبداية والنهاية، لابن كثير: ٣/ ١٠٧ – ١١٦، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، لعلي: ٣/ ٢٥٨ – ٣٥٢، وتاريخ اليمن القديم، لبافقيه: ٥١ — ١٦٤، وتبابعة اليمن السبعون، للفرح: ٥٩٠ – ٦٠١.

(٢)ينظر: تفسير الطبري: ٢٠/ ٣٨٧.

(٣)ينظر: تفسير الطبري: ٢٠/٣٨٦ – ٣٨٧.

(٤)ينظر: تفسير ابن كثير: ٦/ ٥٠٧.

(٥)ينظر: الفن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم، للعريقي: ٣٣ – ٨٩.

عن الهدهد: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النَّمل : ٢٤] (١).

ومن بطرهم أنهم لم يشكروا نعمة تيسير السفر عليهم، بل سألوا الله إزالتها عنهم: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [سبأ : ١٩](٢). وهذا من أهل سبأ غاية الكفر والظلم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [سبأ : ١٩].

الفرع الرابع: حضارة أهل مكة:

أنعم الله على أهل مكة بنعم عظيمة، منها: الأمن؛ فكانوا يعيشون آمنين في الحرم، رغم شيوع الفوضى والسلب والنهب في سائر الجزيرة العربية. كما أنعم الله عليهم برخص الأسعار وتوفر الأقوات والبضائع، وسهولة الحياة، حيث كانت مكة سوقاً عالمية تجلب إليها البضائع من كل ناحية، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القَصَص : ٥٧].

وكانت قوافلهم تسير إلى اليمن والشام، في رحلة الشتاء والصيف، آمنة مطمئنة؛ فتنقل الأقوات والبضائع، وقد امتن الله عليهم بذلك في سورة قريش.

وقد أرسل الله تعالى نبيه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، فكفر به من كفر من أهل مكة؛ فكذبوا رسول الله عليه وسلم وآذوه، وهموا بسجنه وبقتله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال : ٣٠].

وقتلوا المسلمين وعذبوهم في الله وانتزعوا منهم أموالهم وبيوتهم وأجلوهم عن وطنهم. قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحَج : ٣٩ - ٤٠].

ورغم ما أنعم الله به من النعم على كفار أهل مكة؛ فإنهم قابلوا هذه النعم بهذا الكفر، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا

(١)ينظر: تفسير ابن كثير: ٦/ ٥٠٧.

(٢)ينظر: تفسير الطبري: ٢٠/ ٣٨٩.

مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [النَّحل : ١١٢ - ١١٣]. وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إِبْرَاهِيم : ٢٨ - ٢٩]. وقد نزلت هذه الآيات في كفار أهل مكة(١).

المطلب الثاني: عواقب الكفر:

الفرع الأول: حضارة عاد:

كان سبب انهيار حضارة عاد كفرهم بنعمة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هُود : ٦٠]. والكفر المذكور في هذه الآية هو كفر النعمة، عند بعض المفسرين. قال الرازي: "قيل: أراد كفروا بربهم فحذف الباء، وقيل: الكفر هو الجحد؛ فالتقدير: ألا إن عادا جحدوا ربهم. وقيل: هو من باب حذف المضاف، أي: كفروا نعمة ربهم"(٢).

وقد أرشدهم نبيهم هود عليه السلام إلى الطريقة التي يحافظون بها على ازدهار حضارتهم، ويزدادون بها قوة إلى قوتهم، وهي شكر نعمة الله.

كما قال تعالى حكاية عن هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هُود : ٥٢].

وفي قصة عاد من سورة الأحقاف، نبهنا الله تعالى إلى أن تلك سنة إلهية لا تتبدل ولا تتحول، وأن كفر النعمة يستلزم انهيار الحضارة، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأَحْقَاف : ٢٥](٣).

---

(١) ينظر: تفسير الطبري: ١٧/ ٣١٢، و ٢٩/ ٣٨٩ – ٣٩١.

(٢) تفسير الرازي: ١٨/ ٣٦٧، وينظر: تفسير الألوسي: ٦/٢٨٥، وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٥/ ١٠٨.

(٣)ينظر: تفسير الطبري: ٢٢/١٣٠.

كانت عاقبة عاد أن الله تعالى أرسل عليهم الريح؛ فأهلكهم بها، كما قال تعالى: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف : ٧٢].

ودابرهم "آخرهم، لم يترك منهم أحد، قد استؤصلت شأفتهم"(١). كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف : ٢٥]. وقال: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقَّة : ٧ - ٨].وقال تعالى في وصف هذه الريح: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقَّة : ٦].

وقال في وصفها: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذَّاريَات : ٤١ - ٤٢]. والصرصر: الشديدة الباردة ذات الصوت الشديد(٢).

والعقيم: ريح العذاب التي ليس فيها رحمة ولا بركة؛ فلا تلقح الشجر، ولا تثير السحاب(٣). والرميم: ما يبس من نبات الأرض ودِيس(٤).

ووصف الله عذابهم بهذه الريح بأنه عذاب خزي. وذلك لأن سبب كفرهم استعلاؤهم وتكبرهم وعتوهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فُصِّلَت : ١٥] ، فعذبهم الله بالريح إخزاء لهم وتهويناً من شأنهم(٥).

الفرع الثاني: حضارة ثمود:

كما كان سبب انهيار حضارة عاد كفرهم بنعمة الله تعالى، كان سبب انهيار حضارة ثمود أيضاً كفرهم بنعمة الله تعالى، ولذلك عبر عنهما القرآن الكريم بعبارة متقاربة؛ فقال في عاد: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾

(١)تفسير الزمخشري (الكشاف): ٢/ ٢٣.

(٢)ينظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٥٢٠، و ٢١ – ٤٤٤ – ٤٤٥.

(٣)ينظر: تفسير الطبري: ٢٢/ ٤٣٣ – ٤٣٤.

(٤)ينظر: تفسير الطبري: ٢٢/ ٤٣٤ – ٤٣٥.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٤/ ٢٥٨.

[هُود : ٦٠]. وقال في ثمود: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ [هُود : ٦٨]. والكفر المذكور في هذه الآية هو كفر النعمة، عند بعض المفسرين. كما تقدم.

وكما جعل الله عذاب عاد مناسباً لطبيعة كفرهم؛ فعذبهم عذاب الخزي، لاستكبارهم، كذلك عذب ثمود عذاب الهون لاستكبارهم وعتوهم أيضاً، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [فُصِّلَت : ١٧][(١)]. والصاعقة: الداهية، والعذاب الشديد المهلك المبيد، فالمقصود بها الصيحة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هُود : ٦٧] ، أو أنهم عذبوا بالصاعقة والصيحة معاً[(٢)]. وقد ورد في آية أخرى وصف عذابهم بالرجفة، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [الأَعۡرَاف : ٧٨][(٣)].

فقد كانت عاقبة ثمود أن الله تعالى أرسل عليهم عذابه؛ فأهلكهم به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ [القَمَر : ٣١]. قال الزمخشري: "والهشيم: الشجر اليابس المتهشم المتكسر.

والمحتظِر: الذي يَعمل الحظيرة. وما يُحتظَر به يَيبس بطول الزمان، وتتوطأه البهائم؛ فيتحطم ويتهشم"[(٤)].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشَّمۡس : ١٤. دمدم عليهم: أي: أطبق عليهم الأرض، أو المراد بالدمدمة صوت الصيحة التي أهلكوا بها، فسواها: فاستووا في إصابتها له، أو سوى بهم الأرض[(٥)].

---

(١)ينظر: تفسير الطبري: ٢١/ ٤٥٠.

(٢)ينظر: تفسير الزمخشري (الكشاف): ٤/ ١٩١، وتفسير القرطبي: ٧/ ٢٤٢، و ٩/ ٦١، وتفسير الألوسي: ١٢/ ٣٦٦.

(٣)ينظر: تفسير الطبري: ١٢/ ٥٤٤ – ٥٤٥، والتحرير والتنوير، لابن عاشور: ٢٤/ ٢٦٣.

(٤) تفسير الزمخشري (الكشاف): ٤/ ٤٣٨.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير، لابن عاشور: ٣٠/ ٣٧٥.

فبذلك قطع الله دابر ثمود، كما قطع دابر عاد،

قال تعالى فيهما: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ [النَّجم : ٥٠ - ٥١] ، كما قال في عاد: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ [الحاقَّة : ٧ - ٨]. وكان من حمقهم وطيشهم أنهم لم يقدروا عاقبة كفرهم بأنعم الله، ولم يخافوها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾ [الشَّمس : ١٥][(١)].

وقد أرشدنا الله تعالى إلى الاعتبار بعاقبة ثمود، وهي الدمار الذي حاق بحضارتهم، بسبب كفرهم بأنعم الله. قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [النَّمل : ٥١ - ٥٣].

الفرع الثالث: حضارة أهل سبأ:

بيَّن الله تعالى أن سبب انهيار حضارة أهل سبأ هو كفرهم بأنعم الله؛ فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ [سبأ : ١٧]. والمقصود كفر النعمة، حسب رأي بعض المفسرين. قال الألوسي: "أي: بسبب كفرانهم النعمة حيث نزعناها منهم ووضعنا مكانها ضدها. وقيل: بسبب كفرهم بالرسل الثلاثة عشر الذين بعثوا إليهم"[(٢)].

فهم قد كفروا بأنعم الله، وأعرضوا عن شكرها؛ فكانوا من الذين قال فيهم الشيطان، كما حكى الله تعالى عنه: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف : ١٧]. فقال تعالى في صدق هذا الظن الذي ظنه إبليس، في أهل سبأ: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [سبأ : ٢٠][(٣)].

فانهارت حضارة أهل سبأ، بسبب زوال النعمة عنهم، قال تعالى: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ

(١)ينظر: تفسير الطبري: ٢٤/ ٤٦١، وتفسير القرطبي: ٢٠/ ٨٠.

(٢)تفسير الألوسي: ١١/ ٣٠٢، وينظر: تفسير الطبري: ٢٠/ ٣٨٤.

(٣)ينظر: تفسير الطبري: ٢٠/ ٣٩٢.

وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ : ١٦]

فأرسل الله عليهم سيل العرم، فاجتاح سدهم، وأغرقهم، واقتلع قراهم وخرب جنتيهم، وأتلف ما فيهما من الأشجار المثمرة كالعنب، حتى نبتت مكانها أشجار من أشجار البادية، لا تسمن ولا تغني من جوع، من الخمط (الأراك)، والأثل (الطرفاء)، وقليل من السدر(١).

قال قتادة: "بينما شجر القوم من خير شجر، إذ صيره الله تعالى من شر الشجر بأعمالهم؛ فأهلك أشجارهم المثمرة، وأنبت بدلها الأراك والطرفاء والسدر"(٢).

وسلبهم الله نعمة الإقامة في الأوطان، والاجتماع فيها، وتيسير السفر: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ : ١٩](٣).

الفرع الرابع: حضارة أهل مكة:

كان سبب انهيار حضارة أهل مكة كفرهم بأنعم الله، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [النَّحل : ١١٢ – ١١٣].

أي: "وهم مشركون، وذلك أنه قُتل عظماؤهم يوم بدر بالسيف على الشرك"(٤). فانهارت حضارتهم بسبب زوال النعمة عنهم؛ ففقدوا نعمة الأمن والاطمئنان والعيش الرغد.ثم قال الله بعد هذه الآيات مبيناً أن المنجاة من انهيار حضارتهم كانت في الشكر لنعم الله:

---

(١)ينظر: تفسير الطبري: ٢٠/ ٣٨٢ – ٣٨٤.

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: ١٤/ ٢٨٧ – ٢٨٨، وتفسير الطبري: ٣٨٤/٢٠.

(٣)ينظر: تفسير الطبري: ٢٩/ ٣٨٩ – ٣٩١.

(٤)تفسير الطبري: ١٧/ ٣١٢.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النَّحل : ١١٤]. كما قال في أهل سبأ: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ : ١٥].

وقال تعالى في أهل مكة أيضاً: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إِبْرَاهِيم : ٢٨ - ٢٩]. قال ابن عباس: "فهم الذين قتلوا يوم بدر"(١).وقد بيَّن تعالى أن هذه سنة إلهية عامة،

فقد قال في أهل مكة: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القَصَص : ٥٧]. ثم قال بعد ذلك مبيناً عموم السنة واطرادها: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القَصَص : ٥٨ - ٥٩].

ومن بطر كفار أهل مكة خروجهم يوم بدر إلى قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفَال : ٤٧](٢).

فمن المعلوم أن يوم بدر لم يتخلف عنه أحد من أشراف قريش(٣)؛ وقد قُتل منهم سبعون في ذلك اليوم(٤). وهكذا حل بهم العذاب يوم بدر، وكان يوم سابع عشر رمضان، من السنة الثانية من الهجرة(٥).ووصف الله تعالى يوم بدر وعاقبته على كفار أهل مكة بقوله:

---

(١)ينظر: تفسير الطبري: ١/ ٢٥٢.

(٢)ينظر: تفسير الطبري: ١٣/ ٥٨٠.

(٣)ينظر: السيرة النبوية، لابن هشام: ١/ ٦٠٩ - ٦١٠.

(٤)ينظر: السيرة النبوية، لابن هشام: ١/ ٧١٤.

(٥)ينظر: السيرة النبوية، لابن هشام: ١/٦١٢، و ٦٢٦ ، والبداية والنهاية، لابن كثير: ٥/ ٨١.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا ذَا عَذَابٖ شَدِيدٍ إِذَا هُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [المؤمنون : ٧٧] (١). وبقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ [المؤمنون : ٦٤ - ٦٥]. قال الضحاك: "يعني أهل بدر، أخذهم الله بالعذاب يوم بدر"(٢).

وجعل الله يوم بدر جزاء وفاقاً لكفار أهل مكة؛ فجعله يوم خزي وإذلال لهم، كما كان استكبارهم هو سبب كفرهم؛ فقال تعالى في النضر بن الحارث: ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ﴾ [الحج : ٩]. أي: "لهذا المجادل في الله بغير علم في الدنيا خزي، وهو القتل والذل والمهانة بأيدي المؤمنين، فقتله الله بأيديهم يوم بدر"(٣). كما جعل عذاب عاد وثمود خزياً وهُوناً لهم، كما تقدم.

(١)ينظر: تفسير الطبري:١٩/ ٦٠ - ٦١.

(٢)ينظر: تفسير الطبري: ١٩/ ٥١.

(٣)تفسير الطبري: ١٨/ ٥٧٤.

خاتمة

درس البحث ثلاثة نماذج من الحضارات الشاكرة، وأربعة نماذج من الحضارات الكافرة، وتوصل إلى أن الحضارات الشاكرة بقيت في ازدهار دائم، وأن الحضارات الكافرة أصيبت بانهيار داهم، وكل ذلك تحقُّقٌ للسنن الإلهية التي لا تتبدل ولا تتحول، والحاكمة بأن الحضارات التي تشكر أنعم الله هي التي تبقى، وأن الحضارات التي تكفر بأنعم الله هي التي تفنى، وأن المنجاة من الانهيار الحضاري يكون في شكر أنعم الله، وذلك بالإيمان بالله والاعتراف بأنعمه والعمل بأحكامه؛ فالحضارات الشاكرة هي حضارات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والصالحين من أتباعهم، والحضارات الكافرة هي الحضارات التي كذبت الأنبياء وخالفت هديهم.

ويوصي الباحث بمزيد من الدراسة لهداية الشكر، والسنن الإلهية المتعلقة بها، واستخلاص الدروس والعبر منها، لبناء حضارات الحاضر والمستقبل على أسس صحيحة تضمن لها الاستمرار والازدهار، وتحميها من الانحدار والانهيار.

والله أعلم.

ثبت المصادر والمراجع

١- **إحياء علوم الدين** – تأليف: الغزالي (أبي حامد حجة الإسلام محمد بن محمد) – دار المعرفة – بيروت – بلا تاريخ.

٢- **أسباب هلاك الأمم السالفة كما وردت في القرآن الكريم** – تأليف: سعيد محمد بابا سيلا – سلسلة إصدارات الحكمة – بريطانيا – ط ١ – ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

٣- **الإسلام والوعي الحضاري** – تأليف: العمري (أكرم ضياء) – دار المنارة – جدة – ط ١ – ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٤- **البداية والنهاية** – تأليف: ابن كثير (أبي الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي) – تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي – دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان – ط ١ – ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

٥- **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز** – تأليف: الفيروزاباذي (مجد الدين محمد بن يعقوب) – تحقيق: محمد علي النجار – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي – القاهرة.

٦- **تاج العروس من جواهر القاموس** – تأليف: الزبيدي (محمد مرتضى الحسيني) – تحقيق: عبد الستار أحمد فراج وآخرين – مطبعة حكومة الكويت – ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٧- **تاريخ الرسل والملوك** – تأليف: الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير الآملي) – دار التراث – بيروت – ط ٢ – ١٣٨٧هـ.

٨- **تاريخ اليمن القديم** – تأليف: بافقيه (محمد عبد القادر) – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت – ١٩٨٥م.

٩- **تبابعة اليمن السبعون عظماء الأمة العربية في عصور سبأ وحمير** – تأليف: الفرح (محمد حسين) – دار الثقافة العربية للنشر والترجمة والتوزيع – الشارقة – ط ١ – ٢٠٠٢م.

١٠- **التحرير والتنوير** – تأليف: ابن عاشور (محمد الطاهر بن محمد التونسي) – الدار التونسية للنشر – تونس – ١٩٨٤هـ.

١١- **تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)** – تأليف: ابن كثير (أبي الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي) – تحقيق: سامي بن محمد سلامة – دار طيبة للنشر والتوزيع – ط ٢ – ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٢- **تفسير أبي حيان (البحر المحيط)** – تأليف: أبي حيان الغرناطي (أثير الدين محمد بن يوسف) – تحقيق: صدقي محمد جميل – دار الفكر – بيروت – ١٤٢٠هـ.

١٣- **التفسير الإسلامي للتاريخ** – تأليف: خليل (عماد الدين) – دار العلم للملايين – بيروت – ط ٣ – ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

١٤- **تفسير الألوسي (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)** – تأليف: الألوسي (شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني) – تحقيق: علي عبد الباري عطية – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ١ – ١٤١٥هـ.

١٥- **تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل)** تأليف: الخازن (أبي الحسن علاء الدين علي بن محمد الشيحي) تصحيح: محمد علي شاهين الناشر: دار الكتب العلمية بيروت ط ١ – ١٤١٥هـ.

١٦- **تفسير الرازي (مفاتيح الغيب)** – تأليف: فخر الدين الرازي (أبي عبد الله محمد بن عمر التيمي) – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط ٣ – ١٤٢٠هـ.

١٧- **تفسير الزمخشري (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل)** – تأليف: الزمخشري (أبي القاسم جار الله محمود بن عمر) – دار الكتاب العربي – بيروت – ط ٣ – ١٤٠٧هـ.

١٨- **تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)** – تأليف: الطبري (أبي جعفر محمد بن جرير الآملي) – تحقيق: أحمد محمد شاكر – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط ١ – ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٩- **تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)** – تأليف: القرطبي (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي) – تحقيق: أحمد البردوني/ وإبراهيم أطفيش – دار الكتب المصرية – القاهرة – ط ٢ – ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

٢٠- **التوحيد والشكر في سورة النحل** – تأليف: طهماز (عبد الحليم محمود) – دار القلم – دمشق/ الدار الشامية/ بيروت – ط ١ – ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

٢١- **حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي)** – تأليف: الخفاجي (شهاب الدين أحمد بن محمد المصري الحنفي) – دار صادر – بيروت – دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط ١ – ١٤٢٠هـ.

٢٢- **الحضارة: دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها** – تأليف: مؤنس (حسين) سلسلة عالم المعرفة، رقم: ٢٣٧ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويتط ٢ – ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م

٢٣- **رسالة في تفسير قوله تعالى:** ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النَّحل : ١٢٠] – تأليف: ابن طولون الصالحي (شمس الدين محمد بن علي الدمشقي الحنفي) – تحقيق: المحقق: محمد خير رمضان يوسف – دار ابن حزم – ط ١ – ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٢٤- **سنن التداول ومآلات الحضارة** – تأليف: هيشور (محمد) – سلسلة روافد، الإصدار: ٦١ – وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الكويت – ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٢٥- **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها** – تأليف: هيشور (محمد) – المعهد العالمي للفكر الإسلامي – القاهرة – ط ١ – ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٢٦- **السيرة النبوية** – تأليف: ابن هشام (أبي محمد عبد الملك الحميري المعافري) – تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي – شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر – ط ٢ – ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

٢٧- **شخصية الحاكم في ضوء القصص القرآني** – تأليف: المصري (رأفت محمد رائف رأفت) – دار الفاروق للنشر والتوزيع – عَمّان – ط ١ – ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٩م.

٢٨- **الشكر في القرآن** – تأليف: حجاب (كاملة الأنوار) دار الآفاق العربية – القاهرة – بلا تاريخ.

٢٩- **صحيح البخاري** – تأليف: البخاري (أبي عبد الله محمد بن إسماعيل) – تحقيق: مصطفى ديب البغا – دار ابن كثير/ اليمامة – بيروت – ط ٣ – ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٣٠- **صحيح مسلم** – تأليف: مسلم (أبي الحسين بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري) – تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – بلا رقم للطبعة – وبلا تاريخ.

٣١- **عاد في التاريخ** – تأليف: العطاس (هادون أحمد) – مطبعة حسان – القاهرة – ط ١ – ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٣٢- **الفن المعماري والفكر الديني في اليمن القديم: من ١٥٠٠ق. م. حتى ٦٠٠م** – تأليف: العريقي (منير عبد الجليل) – مكتبة مدبولي – القاهرة – ط ١ – ٢٠٠٢م.

٣٣- **القاموس المحيط** – تأليف: الفيروزابادي (مجد الدين محمد بن يعقوب) ضمن شرحه: تاج العروس للزبيدي – تحقيق: عبد الستار أحمد فراج وآخرين – مطبعة حكومة الكويت – ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م

٣٤- **القبائل الثمودية والصفوية: دراسة مقارنة** – تأليف: الروسان (محمود محمد) – جامعة الملك سعود/ عمادة شؤون المكتبات – مطابع جامعة الملك سعود – ط ٢ – ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٣٥- **القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين** – تأليف: عرجون (محمد الصادق) – دار القلم – دمشق/ الدار الشامية – بيروت – ط ٢ – ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

٣٦- **مدخل إلى فقه النعمة** – تأليف: ميقاتي (عبد الإله) – دار الكتب العلمية – بيروت – ط ٢ – ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.

٣٧- **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم** – تأليف: عبد الباقي (محمد فؤاد) – دار الكتب المصرية – القاهرة – ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥هـ.

٣٨- **المفردات في غريب القرآن** – تأليف: الراغب الإصفهاني (أبي القاسم الحسين بن محمد) – تحقيق: صفوان عدنان الداودي – دار القلم – دمشق/ الدار الشامية – بيروت – ط ١ – ١٤١٢هـ.

٣٩- **المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام** – تأليف: علي (جواد) – دار الساقي – ط ٤ – ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٤٠- **الهداية في القرآن الكريم ومضامينها التربوية** – تأليف: الحازمي (عبد الرحمن بن سعيد بن حسين) – جامعة أم القرى – معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي – مكة المكرمة – ط ١ – ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.